

النحو من القرآن الكريم

1- تقويم جديد لكاد واخواتها

الدكتور محمود عبد السلام شرف الدين

تمهيد

يقسم فقهاء اللغات مفردات اللغات الى قسمين كبيرين أحدهما يطلق عليه الكلمات المعجبية اي تلك المفردات ذات المعنى والأخرى يطلق عليه الكلمات التركيبية اي تلك المفردات الخالية من المعنى في حد ذاتها والتي يتضح معناها وهي في التركيب ، والاسم والفعل من النوع الاول والاداة من النوع الثاني .
والاداة تنقسم بسبب كثرة منها خلوها من المعنى المعجمي ، ومنها الجهود في الشكل اي عدم التصرف ، ومنها قلة المدد ، فادوات اية لفة محدودة العدد ، ولكن هذا التحديد الكمي لا يقابله تحديد كيفي ، اذ ان نسبة تردد الادوات في التراكيب تفوق كثيرا نسبة تردد الاسم والفعل .
فالاداة تنقسم بثبات الجانب المادي ، كما ان جانبها الدلالي ذو صفة تركيبية فلا يتضح الا في تركيب ، وهو ما قاله النحاة من ان الحرف ما يدل على معنى في غيره .
لنتظر الآن في « كاد واخواتها » كما جاءت في القرآن الكريم على ضوء من التمهيد السابق السريع .

ثانيا : ما حدث في افعال المقاربة جاء على خلاف الاصل ، اي ان هذه الكلمات كانت من هذه الناحية لا تنسب الى الافعال المتصرفة .

ثالثا : قوله : « لكن المعرب التزمت فيها لفظ الماضي » يدل على ان افعال هذا الباب كانت تسمى نحو حالة « الاداة » .

رابعا : « عسى » اكملت طريق التطور ، اذ هي لا ترى حتى امكانية التصرف النظرية .

خامسا : بعض الافعال جاءت على صورة غير الماضي ، فهي بهذا اقرب الى حالة « الفعلية » من سواها .

ولم يرد في القرآن الكريم الا كلمات قليلة من الافعال السابقة وهي : شرع ، انشا ، خلق ، اقبل ، كاد ، طفق ، عسى .

والكلمات الثلاث الاولى استعملت افعالا تاممة

اطلق القدماء على « كاد واخواتها » افعالا المقاربة ، واشهر هذه الافعال اربعة عشر فعلا ، وزاد النحويون افعالا اخرى حتى بلغت أربعين (1) .

ويقسم النحويون هذه الافعال قسمين : قسم مجمع عليه انه فعل وهو ما عدا عسى ، وقسم مختلف فيه وهو عسى ، فمذهب الجمهور انها فعل ، وذهب بعض النحويين الى انها حرف (2) .

يقول « أبو حيان » الاصل في افعال المقاربة التصرف الا عسى خاصة لكن العرب حين استعملت هذه الافعال هنا التزمت فيها لفظ الماضي الا ما كان من اوشك وكاد ، حيث ان الاكثر في لسان العرب استعمال مضارع الاولى ، واستعمال مضارع الثانية كـصريح (3) .

والنص السابق يشير الى ما يلي :
اولا : الاصل - اي القاعدة - في الافعال ومنها افعال المقاربة ان تكون متصرفة .

(1) السيوطي ، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر ، معجم الهوامع - ط 129 ، القاهرة ، مطبعة السعادة ، 1909 ، يوسف السودا الاحرفية - ط 62 ، 63 ، بيروت ، دار ربحان .
(2) أبو حيان ، محمدا بن يوسف بن علي ، منهج السالك - ط 67 ، نيويورك 1947 .
(3) منهج السالك - ط 70 ، انظر ايضا معجم الهوامع ط - 129 .

متصرفه محافظة على معناها الفعلى أي الدلالة على الزمن والحدث .

أما « أقبل » فلم ترد إلا ماضية ، وقد استعملت تامة وناقصة من أمثلتها تامة قوله تعالى : « فاقبلت أمرته في مرة » (1) « قالوا واقبلوا عليهم ماذا تفقدون » (2) ومن أمثلتها ناقصة : « واقبل بعضهم على بعض يتسألون » (3) ، « فاقبل بعضهم على بعض يتلأمون » (4) .

أما « كاد » فوردت متصرفه ناقصة فقط ، قال تعالى : « قالوا الآن جنث بالحق فذبحوها وما كادوا يفعلون » (5) ، « يكاد زيتها يضيء » (6) « أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين » (7) .

و « طفق » وردت غير متصرفه ناقصة ، لكن علامة المتنى قد لحقت بها ، قال تعالى : « وطفقنا يخصفان عليها من ورق الجنة » (8) كما وردت مع الخبر التصويب مرة في قوله تعالى : « فطفق مسحاً بالسوق والاعناب » (9) .

وقد أول التحاة الآية الأخيرة على أن الخبر محذوف للعلم به أي « يسبح » دلالة المصدر وبعض التحاة وهو مصعب الخشنى ذهب إلى أن الخبر ورد اسماً مفرداً تبييناً على الأصل المتروك (10)

أي إن الأصل أن يكون خبر هذه الأفعال مفرداً منصوباً ، ولكن الاستعمال ورد بخلاف ذلك .

وكان أن + الفعل المضارع هي الصورة الكلامية الوحيدة المستعملة رغم أنها تعد من الناحية النظرية معادلة لصورة أخرى قياسية غير مستعملة .

وهذا الرجوع إلى « الأصل المتروك (كيفه) ابن جنى « بأنه » مما يقوي في القياس ويضعف في الاستعمال أو يخطر في السماع » (10)

والقياس الذي يعنيه (ابن جنى) هو مسلمة مجردة توصل إليها التحاة من دراستهم لكثير من الجمل، ولكن هذه المسلمة مرفوضة .

أولاً : لا يسلم أن الأصل في الإخبار أن تكون مفردة منصوبة ، فتراكيب اللغة مليئة بالإخبار غير المفردة .

ثانياً : على فرض التسليم بهذه المسلمة في غير «أفعال المقاربة» لا يسلم بها مع أفعال المقاربة ، لأن السماع والقياس المؤسس على هذا السماع أن تكون أخبارها مضارعة .

وأرى أن لافرق بين «طفق» مع المضارع ، وبينها مع المصدر في الآية السابقة ، فالمعنى واحد ولعمل استعمالها مع المضارع ومع المصدر يشبه ما عليه اللغة الإنجليزية حين تستعمل الفعل المساعد مع الـ

infinitive ومع الـ gerund الذي يقابل المصدر في اللغة العربية — فقولك طفق يلعب تساوى he began to play وقولك طفق لعباً تساوى he began

playing أما الكلمة الأخيرة « عسى » فقد وردت غير متصرفه ناقصة ، لم تتصل بها علامة تانيث أو عدد — غالباً — .

فأفعال المقاربة مرت بالمرحل التالية — كما تبدو في تراكيب القرآن الكريم —
أولاً : أفعال تامة متصرفه

ذات دلالة على الحدث والزمن
« خلق — أنشأ — شرع »

ثانياً : أفعال تامة أو ناقصة ماضية فقط
تدل على الحدث والزمن
« أقبل »

ثالثاً : أفعال ناقصة متصرفه

تفقد وحدها الدلالة على الزمن والحدث
« كاد »

رابعاً : أفعال ناقصة غير متصرفه
تفقد وحدها الدلالة على الزمن والحدث
مثل « طفق »

(1) الذاريات — 29 ، (2) يوسف — 71 ، (3) الصافات — 27 ، 50 ، الطور — 25 ، (4) القلم 30 ، (5) البقرة — 71 ، (6) النور — 35 ، (7) الزخرف — 52 ، (8) الاعراف — 22 ، (9) ص — 33 ، (10) ثعلب أبو العباس أحمد بن يحيى، مجالس ثعلب ق1 ج1 ، 2095، القاهرة ، دار المعارف ، 1948 ، ابن الأنباري ، كمال الدين أبو البركات عبد الرحمن بن محمد بن عبيد الله ، أسرار العربية — 53 ، ليدن 1886 ، هجع الهوامع ج1 — 131 .

(10) ابن جنى ، أبو الفتح عثمان ، الخمسائص — ج1 — 97-98 ، القاهرة ، دار الكتب 1952 .

خامسا : كلمات ناقصة غير متصرفة
لا تدل على حدث ولا زمن
« عسى »

لا تلحقها علامة (العدد والجنس غالبا)

وإذا تتبعنا حالات الكلمات الناقصة الثلاث
« كاد وطفق ، وعسى » — كما تتضح من هذا العرض
— نرى أنها كانت تسمى في طريق التطور نحو الأداة ،
فكاد فعل متصرف ، وطفق فعل غير متصرف وعسى
غير متصرف والفرق بين طفق وعسى هو أن طفق قد
تلحق به علامة تنبية ، بخلاف « عسى » الذي يستعمل
على صورة واحدة غالبا ، أي أن هذه الكلمات كانت
تفقد خواص الفعل شيئا فشيئا .

ولكن تصرف (كاد) يجعل قرابته للأفعال —
ولو من الجانب الشكلى — أقوى من قرابته للأدوات
الجامدة ، و(طفق) أقرب إلى «الحرفية» منها إلى
«الفعلية» لأنها غير متصرفة .

أما سر اقتصار العرب على صيغة الماضي لهذه
متصرفة لا تلحق بها أية علامة تشير إلى عدد أو نوع
المرفوع بعدها ، ومن هنا فقد شبهوها بلعل التي هي
أداة بلا خلاف . (1)

والضائير التي قد تلحق « عسى » لا تبعدها في
نظر بعضهم عن حالة «الحرفية» إذ أن الضائير اتصلت
بها لتبنيها بالفعل في كونها على ثلاثة (2) .

أما سر اقتصار العرب على صيغة الماضي لهذه
الكلمات فهو أن المتكلمين العرب قصدوا إلى أن يصفوا
الحدث قبيل حدوثه مباشرة ، والتعبير عن مقاربية
حصوله ألوشبكة حتى ليظن القاري أو المستمع أن
الفعل قد حدث « فعلا » أو التعبير عن الحدث السذي
يحدث في الحاضر ، لكنه كان قد بدأ منذ لحظات . ولذا
نجد هذه الأفعال الماضية ترد دائما كي تقرر هذه الحال
بالنسبة لأفعال مضارعة .

وتصرف « كاد » بمجيء المضارع منها يمثل حالة
هذه الكلمات في مرحلة مبكرة للغة حين كان لكل فعل
صيغ فعلية مختلفة ، فهي بهذا أقرب إلى « الفعلية »
— كما قلت سابقا — .

والكلمات الناقصة التي احتفظ بها القرآن الكريم
من هذه الكلمات وهي « كاد » — طفق — عسى » لا
دلالة لها على الزمن في حد ذاتها ولكن دلالتها على
الزمن تظهر حين توضع في جملة ذات أفعال مضارعة ،
فهي دلالة تركيبية أذن ، لأنها لا تظهر إلا في تركيب وهذا
منحى آخر من مناحي اعتبار هذه الكلمات من الأدوات .

ومن الناحية التركيبية أيضا نرى هذه الكلمات لا
تكتفى بالإسم المرفوع بعدها شأن بقية الأفعال بل
تحتاج إلى الفعل المضارع كي يتضح معناها — وهو —
الأمر الذي جعل الأقدمين يجعلونها من الأفعال الناقصة —
وهذه السمة تقربها من الأداة وتبعدها عن «الفعلية» .

وقد قسمت أفعال هذا الباب إلى ثلاثة أقسام من
حيث اقتران خبرها المضارع بأن وعنده ، فهناك أفعال
يجب فيها اقتران خبرها بأن ، وأخرى يمتنع معها
الاقتران ، وثالثة يجوز معها الاقتران : الاقتران
وعنده .

ويوازي هذا التقسيم الثلاثي تصنيف ثلاثي أيضا
يتعلق بدلالة هذه الأفعال في جملتها .

فعلى الرغم من أن هذه الأفعال سميت « أفعال
المقاربة » فإنها كلها لا تعنى المقاربة ، بل أن بعضها يدل
على المقاربة ، وبعضها يدل على الشروع ، وقسم
ثالث منها يدل على التوقع .

وكان تسميتها أفعال المقاربة تسمية لكل باسم
البعض — كما يقولون —

والطريف أن القرآن الكريم احتفظ لكل قسم من
الأقسام الدلالية الثلاثة السابقة بكلمة تمثله فاحتفظ
بكاد التي تعبر عن مقاربة الحصول واستغنى عن كل
أخواتها ، كما احتفظ بطفق التي تعبر عن الشروع في
الفعل الذي بدأ منذ وقت قصير جدا ، وبعسى التي
تعبر عن توقع حدوث الفعل .

وإذا حاولنا تصنيف دلالات هذه الكلمات على
الزمن حسب التصنيف الزمني المعروف فنرى أن :

- 1 — طفق + الفعل المضارع تنتسبان إلى الماضي
- 2 — كساد + الفعل المضارع تنتسبان إلى الحاضر
- 3 — عسى + الفعل المضارع تنتسبان إلى المستقبل

(1) حاشية الأمير على مفتى اللبيب ج 1 — 132 ، القاهرة ، المطبعة الأزهرية 1928

(2) منهج السالك — 71

وجبما لطرفى الظاهرة الواحدة في مصطلح واحد
اقترح تسمية أعمال المقاربة « الأدوات الفعلية » .

فهى « فعلية » لان صفتها فعلية ، كما انها تبني
على الفتح ، ويلحق بها علامة التثنية كما ان بعضها
يتصرف .

وهى «ادوات» لان بعضها جامد يكاد يقرب من
الحرف ، كما ان معناها لا يظهر الا فيما بعدها ، فقد
سبق انها تساعد المضارع على اكتساب الدلالة الزمنية
المعينة فلها - كما يقول سيوييه - ، نحو ليس
لغيرها من الافعال» (1)

بعبارة اخرى ، هذه الكلمات تتسم بسمة الافعال
(حرفا) لكنها تسلك سلوك الادوات (تركيبا) فهى
ليست اداة خالصة لاخذها الشكل الفعلى ، ولتصرف
بعضها ولكنها «اداة فعلية» .

وهكذا يرينا ما عليه هذه الكلمات في القرآن
الكريم ان تراكيب القرآن تمثل مرحلة تطويرية في حياة
اللغة العربية ، فالعدد الجم من « أعمال المقاربة » -
كما سرده النحاة القدماء من تبهم كلام العرب - لم
يرد منه في القرآن الكريم الا سبعة افعال .

ويبدو ان المتكلمين العرب كانوا قد بدأوا قبيل
نزول القرآن ينصرفون عن هذه الطريقة اقصد
تركيب افعال المقاربة - شيئا فشيئا - بدليل ان ثلاثة
افعال من هذه السبعة استعملت في القرآن استعمال
الفعل فهى تامة متصرفة ذات دلالة زمنية ، والافعال
الاخرى الباقية كانت تتجه الى ان تصبح «ادوات»
فارتنا تناولات متفاوتة عن سمات الافعال - على ما
سبق بيانه - .

واتوه هنا بمنطقية لغة القرآن الكريم واتساقها
في الاداء فقد سبق بيان احتفاظ القرآن الكريم بكلمة
واحدة لكل قسم دلالى من اقسام هذه الكلمات الثلاثة ،
فحافظ بهذا على هذه الطريقة التركيبية وكتب لها الابدية
في لسان العربية .

وكان القرآن حين احتفظ بهذه الكلمات الثلاث
لاداء الوظائف السابقة ، كان يحتفظ بها يدل على
الاحتمالات الزمنية الثلاث ، وبعبارة اخرى يلاحظ ان
هذه الكلمات تساعد الفعل المضارع على الاتصاف
بالدلالة الزمنية المعينة فهى - اذن - كلمات مساعدة .

فالفعال المضارع « يلعب - يحتل » الحاضر
و«المستقبل» بصفته ، وبتركيبه مع كاد : كاد يلعب
يقيد الحضور وبتركيبه مع عسى : عسى يلعب يفيد
الاستقبال ، وبتركيبه مع طفق : طفق يلعب يفيد
المضى .

وواضح من الشرح السابق ان لون الدلالة - ان
صح اطلاق كلمة لون هنا - مع كاد وعسى عبارة عن
« تخصيص » المضارع كى يعبر عن الزمن المعين حاضر
او مستقبل ، اما لونها مع طفق فعبارة عن « تحويل »
المضارع كى يعبر عن الزمن الماضى .

واذا كانت هذه الكلمات تساعد المضارع على
التعبير عن الجهة الزمنية المعينة ، فانه اقترح ادراجها
ضمن ادوات الجهة وهو المصطلح الذي يشمل كل
الادوات التى تساعد الفعل على اعطاء الدلالة
الزمنية المعينة ، فعسى مثلا تنهض باداء الوظيفة التى
تقوم بها السين التى هى اداة بالاتفاق .

صحيح ان هذه الكلمات « كاد ، عسى ، طفق »
تطلب مرفوعا يقع قبل المضارع حقيقة او حكما ،
ولكن هذا لا يمنع من ان نتعبرها داخلة على المضارع
على ان يفهم الدخول هنا بمعناه العام الذي يدل على
السياق ، اى ان هذه الكلمات تلتى في سياق الفصل
المضارع .

وقد يبدو ان هناك تناقضا بين الاسم العام الذي
يجمع هذه الكلمات وغيرها « ادوات الجهة » والاسم
الخاص الذي اعطى لهذه الكلمات « أعمال المقاربة » .

والدافع لى وراء ادراج هذه الكلمات ضمن
« ادوات الجهة » ان هذه الكلمات - رغم كونها افعالا -
تقوم بوظيفة الادوات ، وعلم اللفه التركيبى يعنى
بدراسة الكلمات من حيث ما تؤديه من وظائف وقد
يتناسى ما تدل عليه من معنى ، او قد يتجاهل
خصائصها الشكلية .

المراجع :

1 - القرآن الكريم

2 - أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر (سيبويه)
الكتاب - القاهرة ، المطبعة الاميرية 1898

3 - ثعلب ، أبو العباس احمد بن يحيى
مجالس ثعلب - القاهرة ، دار المعارف
1848

4 - ابن جنى ، أبو الفتح عثمان
الخصائص ، القاهرة ، دار الكتب 1952

5 - ابن الاتبارى ، كمال الدين أبو البركات
عبد الرحمن بن محمد

أسرار العربية • لندن 1886

6 - أبو حيان ، محمد بن يوسف بن علي
منهج السالك ، نيويورك 1947

7 - السيوطى ، جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر
معجم الهوامع ، القاهرة ، مطبعة المنعمية
1909

8 - حاشية الامير علي مفتى اللبيب ، القاهرة ،
المطبعة الازهرية 1928

9 - يوسف السودا
الاحرفية - بيروت ، دار ربحان •